بل لقد كانت تباع اراضي كل عشيرة تقاعست عن دفع الضرائب بالمزاد العلني ، وعن هذا الطريق تمكن عدد من التجار واصحاب الاموال من الحصول على مساحات كبيرة من الاراضي · وعن طريق التشريعات والقوانين الجديدة تمكنت الدولة والسلطان العثماني من سلب مساحات كبيرة من الاراضي · فقد استولى السلطان عبد الحميد على مساحات كبيرة من الارض بلغت جميعها حوالي مليون فدان كانت موزعة بين وادي الاردن والحولة بالاضافة الى الخليل وغزة · ووفقا لاوهافن فان ٢٠ الى ٣٠٪ من اراضي سورية الشمالية بقيت حتى عام ١٩٠٧ بيد الفلاحين · وتتفاوت هذه النسبة من مكان الى آخر ، اما في شرقي الاردن فقد بقي ١٥٪ منها في ايدي الفلاحين (٢٩) ·

وعلى الرغم من المحدودية والعفوية اللتين وسمتا التحركين المناهضين للعثمانيين (الشوبك ١٩٠٥) والكرك (١٩١٠) ، الا ان هاذين التحركين اتخذا طابعا شعبيا ومضمونا فلاحيا · وكانت خلفية الانتفاض الفلاحي النقمة والسخط اللذين سببتهما الضرائب واشكال النهب المختلفة واعمال السخرة والتجنيد الاجباري ، والتمهيد لفرض ضرائب جديدة (عن طريق احصاء الممتلكات والاراضي والنفوس) · ولقد اتسم قمع الانتفاضتين بالقسوة والقتل بلا رحمة وبنهب الممتلكات والتخريب (٣٠) ·

مثلما برهنت انتفاضة الكرك عن عدم قدرة قواها المحركة ولا سيما زعامتها الاقطاعية على التحول الى ثورة عامة تنشر لهيبها في المناطق المجاورة وتقيم سلطتها الخاصة ، جاءت هذه الانتفاضة والتململ العام من السيطرة العثمانية لتمهد الطريق امام تقدم قوات الشريف حسين نحو شرقي الاردن ابان الحرب الاولى بدون عقبات تذكر · فقد كانت الظروف الموضوعية مهيأة للتحرك المناهض للسلطة العثمانية ·

---

(٢٩) راجع نبيل بدران : المصدر السابق ·

(٣٠) التفسير السطحي لانتفاضة الشوبك عام ١٩٠٥ هو تسخير جنود حامية قلعة الشوبك الاتراك لنساء القرية في نقل الماء · بيد ان الضرائب والعسف العثماني كانت تكمن وراء الانتفاضة · راجع « تاريخ شرقي الاردن وقبائلها » ، ص ١٨٣ ـ ١٨٤ · كذلك راجع «تاريخ الاردن في القرن العشرين» ص ١٦ ، اما ثورة الكرك (١٩١٠) الاوسع تحولا والاكثر اهمية فيعزى قيامها في التاريخ الى مصادفات واحداث عرضية والى احصاء النفوس · لكن مضمونها الاجتماعي العميق يظهر واضحا من مراجعة مذكرات عودة القسوس ومن الاغاني الشعبية الرائجة انذاك · فهي قد نشبت بسبب الضرائب والسخرة واشكال النهب المختلفة والتجنيد · راجع بصدد قمع انتفاضة الكرك مذكرات عودة القسوس ، كذلك فردريك بيك ، ص ١٨٤ ـ ١٨٥ ·